دراسة الفن الشعبي

قلق السندباد البحري

بقلم شاكر حسن سعيد

« في الليلة ٥٣٠ قالت شهرزاد للملك شهريار : بلغني ايها الملك السعيد ان السندباد البحري لما اجتمع عنده اصحابه قال لهم : اني كنت في الذ عيش الى ان خطر ببالي يوما من الايام السفر الى بلاد الناس واشتاقت نفسي الى التجارة والتفرج في البلدان والجزائر واكتساب المعاش فهممت في ذلك الامر وأخرجت من مالي الشيء الكثير واشتريت به بضائع تصلح للسفر وحزمتها وجئت الى الساحل فوجدت مركبا مليحة جديدة لها قلع قماش مليح وهي كثيرة الرجال زائدة العدة وانزلت حمولي فيها انا وجماعة من التجار وقد سافرنا في ذلك النهار » .

مطلع الحكاية الثانية (١)

القسم الاول ــ عرض

حينما كان السندباد يتأهب بعد كل فترة راحة لرحلة جديدة ، كان ، ولا بد ، يختار مخاطرته التي ستقذف به في صميم الحياة . فهو بعد ان يخلد الى الدعة ردحا من الزمن ، تحدثه نفسه بغتة ، وتسول له السفر ، وسرعان ما يجمع امره على ذلك وينجزه . اما بعد رحلته السابعة والاخيرة ، فان توبته المؤيدة بالايمان المغلظة كانت ستركن به الى الكسل ، وسيجد نفسه حينئذ ، هذا المغامر البحار ، عاجزا عن السفر في البحر . وهكذا يقضي القسط الباقي من حياته في بلده قانعا خانعا حتى يدركه الموت ويطوي صفحته الى الابد .

ان ما يسترعي النظر في رحلات السندباد البحري اوهي سلسلة من الحكايات البحرية التي تعتمد على مجموعة من الاحداث المدونة في كتب الرحلات او الاساطير والحكايات الهندية والفارسية واليونانية مثلما تستند الى تصورات مؤلفيها او مؤلفها) (٢) ... هو هذا الشعور الملتهب الذي سيدفع به الى المغامرة ، اكثر مما تسترعيه تلك المخاوف التي كانت تسترعيه في رحلاته . اذ مهما كان نصيبه من اهوال ، ومهما كان سينجو منها ، فانه سيتأهب بعد كل رحلة ، وبعد ان يمضي فترة استجمام في المدينة يقضيها بين اهله واصدقائه ، الى رحلة جديدة يرفض خلالها كل مباهج حياة الاستقرار ، ومفاتنها المبتذلة .

وهنا تبرز امامنا مشكلة انسانية عريقة ومعضلة ازلية ، فلماذا هذا الاندفاع نحو المخاطر ؟ ولم يفضل السندباد لنفسه المتاعب دونما عذر معقول ؟ الا يجدر به ان يقبل رغد العيش ، ويرضى بقسطه من السعادة التي تهبها له حياة الاستقرار ، وأن يرفض الشقاء والقلق وكل ما يرافق حياة الترحال من اتعاب ؟ ولكن السندباد على ما يظهر من دراسة حكايته ــ لم يقتنع بشيء . فهو يرفض رغد العيش ويقبل المخاطرة . وهو يقبل المغامرة ويتجشمها . على ان ما يدهشنا حقا هو انه لم يكن ليجهل ما ستجابهه به اسفاره من اهوال ، وأهونها ان يتحطم به المركب وسط خضم هائج ورياح وأمطار . فهل كان يفضل لنفسه ان يبدو عاريا ولمنطقه ان يكون أخرق : « **وقلت لروحي يا سندباد يا بحري انت لم تتب وفي كل مرة تقاسي فيها الشدائد والتعب ، ولم تتب عن سفر البحر . وان تبت تكذب في التوبة ! فقاس كل ما تلقاه فانك تستحق جميع ما يحصل لك . وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح**»(٣)

يرى (جويو) في موضوع المخاطرة أن الانسان متى قبل المخاطرة فقد ارتضى لنفسه امكان الموت لان المخاطرة اشبه باليانصيب ، وارقام اليانصيب فيها الخاسر وفيها الرابح . ومن يشاهد اقبال الموت في هذه الظروف يشعر كأنه مرتبط بالموت) (٤) . ومن هنا يمكننا تصور مدى استهانة السندباد البحري بحياته وارتباطه بالموت . فهو على الرغم

(١) ص ٨٨ المجلد الثالث . حكايات السندباد البحري . الف ليلة وليلة . مطبعة محمد علي صبيح ميدان الازهر بمصر

(٢) لاستقصاء الحكاية راجع الدراسة القيمة التي انجزها الاستاذ حسين فوزي في كتابه (حديث السندباد القديم) ص ٢٥٦ ــ ٣٦٢ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٣

(٣) الحكاية السابعة . المجلد الثالث . الف ليلة وليلة ص ١١٧ .

ومن الامثلة على ان السندباد لم يكن يجهل ما سيصادفه من اهوال معاتبته لنفسه في احد المواقف « قال السندباد ، وأما انا فاني رأيت في تلك المغارة امواتا كثيرة ورائحتها منتنة كريهة فلمتُ نفسي على ما فعلته وقلت والله اني استحق جميع ما يجري لي وما يقع ... وكلما اقول خرجت من مصيبة اقع في مصيبة اقوى منها » المجلد الثالث . الحكاية السابعة الف ليلة وليلة ص ١٠٤

(٤) ج . هـ . جويو : الاخلاق بلا الزام ولا جزاء . ترجمه سامي الدروبي ص ١٤٣

من تعرضه للمهالك باستمرار (ففي كل حكاية يكاد ان يموت غرقا بعد ان يتحطم مركبه او يغفله النوتية على جزيرة نائية) فقد كان يعاود السفر بشجاعة وقلة اكتراث . وهو في بعض مواقفه يربط نفسه بطائر الرخ الخرافي الملامح مفضلا المخاطرة بحياته على البقاء وحيدا في واد مهلك ((**فعند ذلك فككت عمامتي من فوق رأسي وثنيتها وفتلتها حتى صارت مثل الحبل . وتحزمت بها وشددت وسطي ، وربطت نفسي في رجلي ذلك الطير ، وشددتها شدا وثيقا...وبت في تلك الليلة ساهرا خوفا من ان انام فيطير بي على حين غفلة . فلما طلع الفجر وبان الصباح قام الطائر من على بيضته وصاح بي صيحة عظيمة وارتفع بي الى الجو حتى ظننت انه وصل الى عنان السماء . وبعد ذلك تنازل بي حتى نزل على الارض**)) (٥) وفي مغامرة اخرى يتآمر مع بعض المسافرين التائهين في جزيرة غيلان البحر على اغتيال الغول الكبير الذي كان يشوي اجسادهم على السفود ، معرضا نفسه وجماعته لسخطه الوحشي وخطتهم الى الافتضاح ((**ثم قام ، اي الغول، وخرج الى حال سبيله . فلما تحققنا بعده ، تحدثنا مع بعضنا وبكينا على ارواحنا وقلنا يا ليتنا غرقنا في البحر وأكلتنا القرود خير من شوي الانسان على الجمر ... ثم اننا قمنا وخرجنا الى الجزيرة.. فقال واحد منا اسمعوا كلامي اننا نحتال عليه ونقتله ونرتاح من همه ونريح المسلمين من عدوانه وظلمه . فقلت لهم اسمعوا يا اخواني ، ان كان ولا بد من قتله فاننا نحول هذا الخشب وننقل شيئا من الحطب ونعمل لنا فلكا مثل المركب . وبعد ذلك نحتال في قتله ... ثم ان الاسود اخذ واحدا منا وفعل به ما فعل بسابقه ، وأكله ونام على المصطبة . وصار شخيره مثل الرعد . فنهضنا وقمنا ، واخذنا سيخين من حديد من الاسياخ المصنوعة ووضعناهما في النار القوية القوية حتى احمرا وصارا مثل الجمرة . قبضنا عليهما قبضا شديدا وجئنا بهما الى الاسود وهو نائم يشخر ووضعناهما في عينيه واتكأنا عليهما جميعا بقوتنا . وعزمنا فأدخلناهما في عينيه وهو نائم فانطمستا وصاح صيحة عظيمة ... الخ**)) (٦)

أكان السندباد اذن يقارن ما بين الموت والحياة ويختار مواقفه بوضوح بصيرة ؟ ام كان لا يبغي في اسفاره سوى المغامرة مؤملا الربح والغنى والتلذذ بارتياد البقاع التي يجهلها .. ؟ على اننا سنرى من ذلك ان (مواقفه) كانت موضوعة في أطار (المقامرة) ، ولكن مهما كان ليجازف بنفسه من خلالها ، فان خاتمته كانت ان يفوز بحياته وأمواله وسعادته . وما كان له ان يتخبط في كل مرة حتى يتملص آخر الامر بحذق ومهارة مستهينا بكل ما سيصادفه من عقبات . ففي احد اسفاره مثلا يقع تحت رحمة شيخ يتحايل عليه فيمتطي ظهره ويستغله كمطية له دونما رحمة ولا شفقة ، فلا يتخلص منه السندباد الا بعد ان يصنع له شرابا مسكرا من اعناب الجزيرة ((**قلت له يا شيخ ما سبب جلوسك في هذا المكان ؟ فحرك رأسه وتأسف واشار بيده يعني احملني على رقبتك وانقلني من هذا المكان الى جانب الساقية الثانية فقلت في نفسي اعمل مع هذا معروفا وانقله ... فتقدمت اليه وحملته على اكتافي وجئت الى المكان الذي اشار اليه وقلت له انزل على مهلك فلم ينزل عن اكتافي ... وقد لف رجله على رقبتي ... فرفع ساقيه وضربني على ظهري وعلى اكتافي فحصل لي ألم شديد فنهضت قائما به وهو راكب فوق اكتافي . وقد تعبت منه ولم ازل معه على هذه الحالة وانا في اشد ما يكون من التعب . وقلت في نفسي انا فعلت مع هذا خيرا فانقلب شرا . الى ان جئت به يوما من الايام الى مكان في الجزيرة فوجدت فيه يقطينا كثيرا ومنه شيء يابس فأخذت منه واحدة كبيرة يابسة وفتحت رأسها وصفيتها الى شجرة العنب فملأتها منها وسددت رأسها ووضعتها في الشمس ، وتركتها مدة ايام حتى صارت خمرا صافيا وصرت كل يوم اشرب منه لاستعين به على تعبي مع ذلك الشيطان. فنظرني يوما من الايام وانا اشرب فأشار لي بيده ما هذا ..؟ فقلت له هذا شيء مليح يقوي القلب ويشرح الخاطر ...** وأشار لي ان اناوله اليقطينة ليشرب منها فخفت منه وأعطيتها له فشرب ما كان باقيا فيها ورماها على الارض وقد حصل له طرب ... ثم انه سكر وغرق في السكر وقد ارتخت اعضاؤه .. .فلما علمت بسكره وانه غاب عن الوجود مددت يدي الى رجليه وفككتهما عن رقبتي ثم ملت به الى الارض وألقيته عني)) (٧)

وفي سفرة اخرى يدفن حيا مع زوجته المتوفاة وذلك مراعاة للتقاليد السائدة في القطر الذي استقر فيه اثناء سياق مغامراته . لكنه لم يستسلم لمصيره المظلم . بل ظل يتحين الفرص وهو في سجنه الموتي . ولم يتوان عن قتل المدفونين من الاحياء على شاكلته لكي يتأدم بطعامهم مقرا بان (لا فضل له في شجاعته السالفة كما لا ذنب له في نذالته الحاضرة . وان لحظة ما بين الحياة والموت تمحو المعايير الاخلاقية امام غريزة حب البقاء) (٨) حتى يجد له آخر الامر منفذا يؤدي به الى سطح الارض يخلصه نهائيا من مأزقه . وفي مثل هذا الموقف الذي ينخذه يفصح لنا السندباد عن نظامه الاخلاقي : فهو في ميدان المغامرة لا يتمسك بأي مبدأ يسم بموجبه افعاله ويرسمها بصورة قبلية . اذ لم يعد في عرفه خير وشر مطلقان ، ولا ثواب او خطيئة الا ما يتيح له الاستمرار في الحياة ، ولنلاحظ انها تكتسب لديه معنى مجردا لكل ما هو ايجابي ، فهي استمراره في البقاء ونجاحه في مغامرته ودعوته لوطنه وتحقيقه لانسانيته وفوزه على اعدائه وتمتعه بمفاتن العالم،

(٥) الحكاية الثانية . المجلد الثالث . الف ليلة وليلة ص ٨٩

(٦) الحكاية الثانية . نفس المصدر السابق ص ٩٤ – ٩٦

(٧) الحكاية الخامسة . الجزء الثالث . الف ليلة وليلة ص ١٠٨

(٨) – حسين فوزي : حديث السندباد القديم ص ٢٩٦

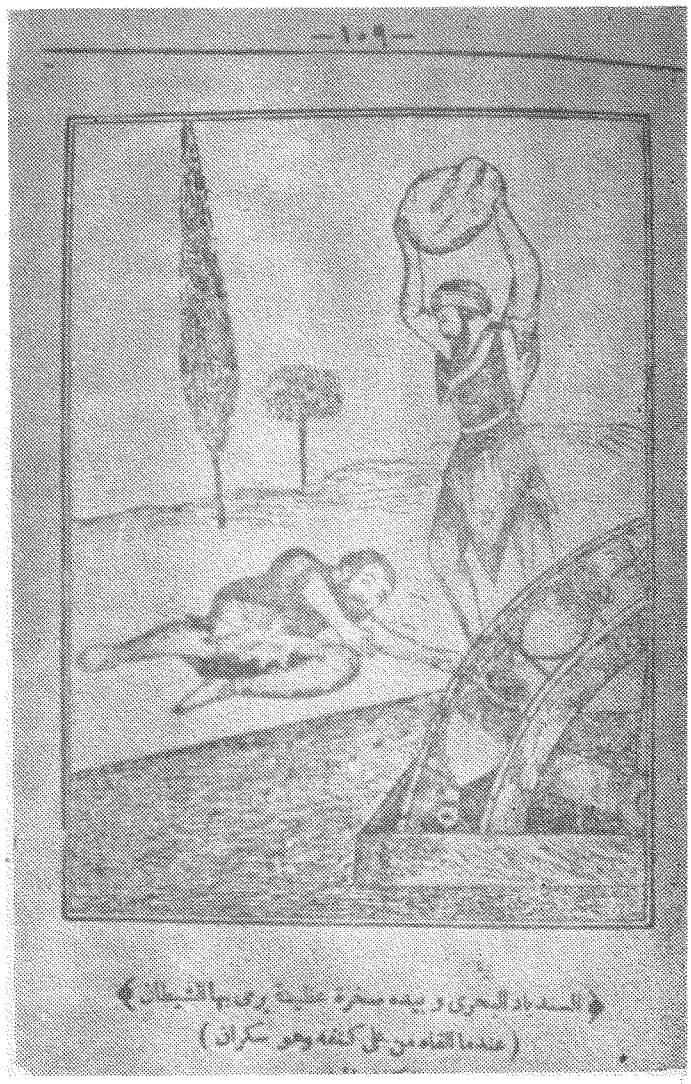

« السندباد البحري وقد سحرة شيخ وركب على الشيطان »
(عندما اشاده من حل كتفه وهو سكران)

وهكذا فقد كان يعاني ــ ولا شك ــ شعور من يحيا في عالم رجراج لا ضمان فيه فيضطر الى ان يخترع مقاييسه اختراعا ــ اي في حدود المشكلة التي يعانيها ــ . لقد فرض عليه اعتباطا ــ ودونما معنى ــ ان يدفن حيا فما كان منه الا ان يوازن ما بين احد مصيرين . اما الموت دونما معنى بعد نفاذ ذخيرته . واما الحياة عن طريق قتل سواه من الاحياء المدفونين على شاكلته . وقد اختار هو الحل الثاني **« قالت بلغني ايها الملك السعيد ان السندباد لما حطوه في المغارة مع زوجته التي ماتت وردوا باب المغارة وراحوا الى حال سبيلهم قال ...** (ويستمر في وصف الحوادث التي مرت به داخل القبر وصراعه للاستمرار في البقاء مع سواه من الاحياء المدفونين) ثم يقول : **« وأنا كل من دفنوه اقتل من دفن معه بالحياة وآخذ اكله وشربه وأتقوت به » (٩)** وبعد لأي استطاع ان يتملص من مأزقه حينما ينتبه من نومه على اصوات مبهمة ، وكانت لوحش تسلل خفية الى المقبرة فتبعه حتى وجد لنفسه منفذا يؤدي به الى سطح الارض .

ألا يجدر بنا ان نلاحظ من خلال حكايات السندباد بطلا من ابطال المغامرات وكائنا بشريا يجهد للمحافظة على انسانيته بكل قواه ؟ الم يفلت من اطار المنطق والتقاليد : يزدري حياة الامن وكان بامكانه ان يحياها في المدينة مترفا مفعما مكتفيا باملاكه وعبيده وقيانه ، ويخاطر بنفسه وأمواله مغالبا الموت والمجهول دونما اكتراث وبرباطة جأش وثقة ؟ . .

ولكن هذا البطل (المتمرد) ... لا يلبث ان يستسلم آخر الامر فيقلع عن أسفاره الى الابد ومن دون ان يجد له عذرا حقيقيا سوى ايمانه بالقضاء والقدر ، وهو ايمان لم يكن له بد لمغامر سيجتر فيما بعد ذكرياته فحسب ، في حين لم يكن ذا جدوى طيلة اسفاره السابقة: **«قال السندباد: يا حمال اعلم ان المكان الذي تراني فيه ، فاني ما وصلت الى هذه السعادة وهذا المكان الا بعد تعب شديد ومشقة عظيمة وأهوال كثيرة . وكم قاسيت في الزمن الاول من التعب والنصب وقد سافرت سبع سفرات وكل سفرة لها حكاية تحير الفكر وكل ذلك بالقضاء والقدر . وليس من المكتوب مفر ولا مهرب » (١٠)**

القسم الثاني ــ تحليل

قبيل كل سفرة من اسفار (سندباد) كانت ستتساوى قيم الاشياء . وكان عليه ان يجابه اعداء لا شكل لهم الا من خلال المصادفات العجيبة التي تعترضه . ولكن من حياة رجل مترف كانت ستتبرعم بغتة اهواء رجل بحار . ومن حياة موسر سعيد يمتلك الجواري والعبيد والمال الوفير ويتمتع بمجالس السمر والشراب والغناء ستظهر فجأة حياة المسافر الملتاع .

ان السندباد يبدد القسط الاوفر من ارثه في ممارسة حياة البذخ ، ثم يتذكر احدى حكم النبي سليمان التي تحث على المثابرة والمجد فيزمع على السفر وهو خالي البال من كل ما سيصادفه من عقبات **«اعلموا يا سادة يا كرام انه كان لي اب تاجر ، وكان من اكابر الناس والتجار . وكان عنده مال كثير ، ونوال جزيل . وقد مات وأنا ولد صغير . وخلف لي مالا وعقارا . فلما كبرت وضعت يدي على الجميع وأكلت أكلا مليحا وعاشرت الشباب وتجملت بلبس الثياب، ومشيت مع الخلان والاصحاب واعتقدت ان ذلك يدوم وينفعني . ولم ازل على هذه الحالة مدة من الزمن ثم اني رجعت الى عقلي . وأفقت من غفلتي ، فوجدت ان مالي قد مال وحالي قد حال . وقد ذهب جميع ما كان معي .»(١١)**

فقبيل رحلة السندباد الاولى الى الجزيرة المتحركة ، وأرض الخيول البحرية ينتبه الشاب الى سخف حياته : اوشكت ثروته على النضوب ، وهو يمل حياة الدعة ويسأم منها . وهو يفكر بالترحال هكذا دونما عذر واضح سوى اضمحلال ثروته نتيجة لانغماسه في التبذير . ولكأني بذلك اليافع

(٩) الحكاية الخامسة . الجزء الثالث . الف ليلة وليلة ص ١٠٤ــ١٠٥

(١٠) الحكاية . الجزء الثالث . الف ليلة وليلة ص ٨٣

(١١) ، ١٢ : الحكاية . الجزء الثالث . الف ليلة وليلة ص ٨٣

الحذق الذي نال تربية وسطى مترفة ، يفتش له في مطلع شبابه عن ملجأ يصدم فيه عواطفه ومشاعره الصديئة . انه الان اشبه بالسيل الدافق ما ان يجتمع في منخفض فيملأه حتى ينتهي فيه لينحدر نحو آفاق جديدة مجهولة . لقد جرب السندباد حياة الموسرين وعليه ان يجرب حيـــاة المترحلين ، ان يجرب الحياة بكل قواه ومن جميع وجوهها، وكان عليه من ثنايا ذلك القلق الباحث عن مصير الانسان ان يتذكر حكمة دينية يبرر بواسطتها لنفسه التحول الجديد، والتي هي بلا شك من بقايا ثقافته المدرسية السالفة **((ثلاثة خير من ثلاثة ، يوم الممات خير من يوم الولادة ، وكلب حي خير من سبع ميت ، والقبر خير من القصـــر))** (١٢) .

وكان على السندباد ايضا ان يفسر هذه الحكمة ويعيشها خلال موافقة في اسفاره نفسها فيبرهن على نبذه لحيـاة الاستقرار التي نشأ فيها مفضلا عليها حياة المغامرة التـي قد تؤدي به الى الموت في أية لحظة بما تتضمنه من اهوال، كما يبرهن على تشبثه المستمر بالحياة ، الحياة التي كان يفضل ان يعيشها وهي مفعمة وان لم يجد فيها معناهـا وذلك باستبعاده فكرة الموت والاستقرار ، وكان عليه بعد ذلك ان ينتهي الى تلك النتيجة الحاسمة . وهي ان القبر خير من القصر . وأي قبر كان على السندباد ان يسكنه ؟ اليس هو ذلك الكوخ الابدي الذي لا يستقر على اية بقعة ولا جزيرة ؟ في حين سيهدم قصره المنيف بثروته وسـكانه بمجرد اقلاعه ذات صباح بمركبه الذي كان راسيا عنـد ساحل مرمل نحو قرى وجزائر لا يدري ما اذا كـــان سيصلها . . . !

على انه لا بد لنا من تصنيف رحلات السندباد البحـري وتقنينها لكي نفهم التطور النفسي لشخصيته: ذلك ان نموا مطردا (بداية ــ نهاية) يمكن ملاحظته في ثلاث مراحل من حياته كمغامر ! رحلته الاولى ، ورحلاته الوسطى (مـــن الثانية الى السادسة) ثم رحلته الاخيرة (السابعة) .

١ ــ ففي رحلته الاولى يمكننا ان نلمس شخصيته اليافعة ودعوته الداعية لاكتشاف المجهول وتحقيق فكـرة المغامـر البطل ، والاستهانة بالاهوال والمصادفات . فهي دعـــوة لا تحفل بالموت وتشيد بالحياة وترفض الركود ، ولكنها لا تدرك سوى جانب واحد من مصير الانسان ، وهي لهـــذا السبب (جد متفائلة) . انها المحاولة الاولى للعوم وسط تيار قذف فيه الانسان . ولا بد ان مشاعر طائر ــ يدفع به الى الفضاء لاول مرة ــ كانت ستجتاح كل كيانه كيما يحلـم بالاستمرار . وفي عالم اثيري لا نهاية له . وكان هذا البحار يرسم في مخيلته ــ ولا شك ــ ملامح انسان لم يعد يخشى المجازفة ولا يحسب حساب الصدفة والنتائج المثبطـــة للهمم . الا ان رحلته الاولى هذه الى (بلاد المهراج) ومـا صادفه فيها من اهوال ثم نهايتها بشكل لم يقدم له حـــلا لعذابه الداخلي لتحقيق فكرة المغامر البطل ، قلبت افكاره رأسا على عقب . فثمة نهاية اذن لكفاح الانسان دونمـــا منطق . وان شجاعته وحبه للمغامرة ، كانتا مشوبتين بتحكم الصدفة المحضة ــ ومن ثم فان افكاره ستتبدل بعدها . وذلك خلال سفراته الخمس التالية (من الثانية حتى السادسة) اما سفرته السابعة والاخيرة فانها ذات اتجاه آخر .

٢ ــ والواقع ان المرحلة الثانية من اسفاره كانت اسفارا مشوبة بروح العبث واللامبالاة . فهو بمثل هذه المشاعـر سيواجه كل مصائره في رحلات عجيبة (الى وادي الماس) و (جزيرة العمالقة) و (البلاد التي يدفن فيها الازواج احياء مع زوجاتهم الميتات) و (جزيرة شيطان البحـر) و (رحلة نهرية في كهف) . ولعله كان يمارس هـــذه السفرات بأهوالها ومصادفاتها برغبة مزدوجة لاستشفاف صواب العلاقة ما بين الفعل وغايته ، ما بين صراعه المستمر ازاء الاشياء في الظروف الزائفة التي تحوطه وما بين حريته الانسانية لالتزام مواقفه بصورة موجبة . ومن هنا فقد كان يعاود السفر مرارا باحثا يائسا في نفس الوقت . وستجد انه (قبيل) وأثناء كل سفرة من هذه السفرات هو شخص آخر (غير ما كانه اولا) فهو لا يبغي الرحيل تحقيقا لامل او ترويحا عن النفس او نشدانا للتجارة . وان كان يبـرر ذلك لنفسه في حكاياته **(فاشتاقت نفسي الـى السـفر والفرجة .. وتشوقت الى المتاجر والكسب والفوائد الخ.)** أتساوت لديه فيها قيم الاشياء ؟ فلا يدري ولا يهمه ان يدري ماذا سيواجهه من مصير ؟ ام انه يمارس الحياة فحسب ولا يثنيه عنها مخاطر او مصاعب ؟.. لقد تعلم منذ سفرته الاولى ما الصدفة من دور خطير في مستقبله ، ولكـــن الصدفة بذاتها كانت عدوه اللدود الذي سوف يطارده دونما رحمة في حين سوف تتكشف له اخر الامر عن صديق حميم ينقذه من ضروب المهالك والمخاطر . وفي مثل هذه الابعاد الرجراجة كان السندباد لا يفتأ يعاود اسفاره العابثة . فقد حكم عليه خلالها بالحياة . لقد كان (سيزيف) كما يرسمه لنا البير كامو يحمل صخرته من سفح الجبل الى قمته ، بصبر وأسى . مثلما يعود ليحملها ثانية بعد ان تتدحرج **It is during that returne, that pouse, that Sisyphus interets me** (١٤) وكذلك كان السندباد . فليس مـــا سيتعرض له من متاعب اثناء اسفاره في هذه المرحلة لتعادل شعوره المقيت بالسأم بفراغ حياته الرتيبة في المدينة والتي سيحياها بعد كل عودة الى اهله ووطنه ، وشعوره بالغربة وهو في بيته . ان مأساة السندباد هنا لتنحصر في شقائه المستمر بلغز الحياة المعقد . أليس لحياة الامن والسعـادة الا ان تنتهي بسأم الانسان الانساني ؟ وهل اضحى على الانسان أن يشقى وان يضيق بما كان ينشده ابدا ؟ ولـم تكن اسفاره بدورها لترضيه ــ فقد كان على (سيزيف) ايضا ان يحمل صخرته وهو يدري انها سوف تتدحرج ــ

---

(١٣) الحكاية . الجزء الثالث . الف ليلة وليلة ص ٨٣

(١٤) البير كامو . اسطورة سيزيف (الترجمة الانجليزية) .

كما لم يرو غلته استقراره بين خدمه وجواريه ـ فقد كان يعلم مقدما ان ليس له ان يستقر على حال ـ . ان نظاما رهيبا ما يفتأ يقيده ويعذبه . فالحياة امامه ما تبرح غامضة مهما استمر في التعرف عليها . انها ستفر منه كما يفر السراب من امام المسافر التائه ، ولن ينقذه منها بعد اقلاع ولا وصول .

وبمثل هذه النتيجة الفاشلة خرج السندباد من اسفاره الوسطى كما خرج (جلجامش) تماما . لقد قطع بطل(اروك) بحر الموت للوصول الى جده الخالد (اتونا بشتم) لكي يحصل منه على سر الخلود . فما كان له ـ بعد ان حصل عليه ـ الا ان يفقده . لقد سرقت ذات مساء أفعى فضية نبات (جلجامش)الذي غاص البحار من اجله ، وقطع الصحارى والجبال ، وذلك حينما كان غافيا عند ساحل غدير ضحل . لقد سرق(جلجامش) مرة واحدة والى الابد . ولم يعد باستطاعته ان يخلد (١٥) . ولقد سرق السندباد بدوره بعد رحلته السادسة . ولم تكن افعاه سوى الصدفة المحض . كان السندباد يقلق باستمرار ليجد معنى حياته في مغامراته . وها هو يقلق اخيرا بعد ان بلغت (لامعقولية) الحياة ذروتها **((ثم اني ألقيت ذلك الفلك في هذا النهر وجعلت له خشبتين مثل المجاذيف على جانبيه وسرت بذلك الفلك في النهر . وانا متفكر بما يصير اليه امري . ولم ازل سائرا الى المكان الذي يدخل فيه النهر تحت ذلك الجبل وأدخلت الفلك في هذا المكان . وقد صرت في ظلمة شديدة فأخذتني سنة من النوم من شدة القهر فنمت على وجهي في الفلك ولم يزل بي سائرا وانا لا ادري بكثير ولا قليل حتى استيقظت فوجدت نفسي في النور ففتحت عيني الخ ...))** (١٦) لقد بلغ به الهلع اخيرا الحد الذي سيفقد بسببه وعيه (ينام من شدة القهر) . لان اية مغامرة لم تفقده شعوره ووعيه ابدا . لا طيرانه وهو معلق بمخالب الرخ ، ولا دفنه حيا ، ولا مبيته ليلة في واد يضج بالافاعي ، ولا وقوعه في قبضة الغول ولا تحت رحمة شيطان البحر . ومع ذلك فان الصدفة هي التي انقذته اخيرا من مأزقه . لقد عمل ما بوسعه ، فجازف بنفسه ودخل بفلكه بطن الجبل . ولكنه استفاق اخيرا وهو على ساحل نهر يشق صدر مدينة عامرة .

لقد دحر السندباد والى الابد .

٣ ـ ومن هنا فان المرحلة الثالثة من اسفاره كانت هي سفرته السابعة الى (مقبرة الافيال) (١٧) فبعد رحلته السادسة نراه يقطع على نفسه عهدا بأن يستقر في المدينة غير انه يضطر آخر الامر للسفر اضطرارا فيخوض بحكمة الفيلسوف رحلته الاخيرة لا مغامرا ولا عابثا . يخوضها بحكمة من ضرسته الحياة وصرعته وما كان اشبه سفرته هذه بآخر لهبة من شمعة محتضرة . ولقد انتصر في هذه السفرة ايضا ، فعاد الى باده آخر الامر بعد سلسلة من الاهوال . ولكن اية مرارة كانت تفسد مذاقه ! واي شعور بالهزيمة كان يجتاحه . انه نصر خارجي ذلك الذي احرزه من تجربة عمر الانسان . فما بين انياب الفيلة الغانية ووحشة الغابة المظلمة سوف ينتهي لديه صراع الانسان الى استسلام تام كيما يتذوق به موته الحقيقي والى الابد .

*

السندباد البحري : هذا الاله الصغير !

ما كان اشد حضوره الانساني ! وما كان أعنف ما كافح وناضل ! اكان يدرك ان في الاستقرار موت الانسان . وان في المخاطرة بعثه ؟ ولكنه كان يحار في كل هذا . لماذا لا يستقر ، ولماذا لا يخاطر ؟ ولماذا لا تفصح الحياة عن معناها ، واخيرا لماذا كانت الصدفة على تفاهتها ـ تتحكم في جهوده على نحو خارج عن طاقته ؟

ولكن قبيل كل سفرة ، كانت ستظل مشاعره تلتهب وتتحفز . لان انسانا ما خلاله ، أصر على ان يكون اكثر انسانية من قبل ، ودون ان يحفل بما ستخبئه له الاقدار . اكثر انسانية وليس اكثر املا . وهنا روعة هذا المخلوق الحر . لقد كانت حياته اسفاره السبع الى تخوم وخفايا (بلاد المهراج) وجزائر (واق واق) وسواها من البلدان النائية بأهوالها وعجائبها ومفاتنها . ولكن ذات ليلةاو امسية سيدركه الموت وهو خانع في بيته مسجى ما بين الطنافس والحرائر ، محاط بنسائه وعبيده واطفاله . ومن ثم سيسخر حتما من ان تختم حياته ، هو المغامر ، بنهاية غير متوقعة، لا معنى لها سوى انهائها لمشكلة (حياة) قد تخلو من معناها ولا تخلو من كفاح الانسان .

باريس

شاكر حسن سعيد

(١٥) (اسطورة جلجامش) مجلة سومر . طه باقر ،وبشير فرنسيس ص ٤٢ ـ ٨٠ لسنة ١٩٥٠ ج (١)

(١٦) الرحلة السادسة . الف ليلة وليلة ج (٣) ص ١١٤

(١٧) الرحلة السابعة . لم تدون هذه الرحلة في الطبعة التي اعتمدت عليها كنص للحكايات وانما اشار اليها الاستاذ حسين فوزي في كتابه حديث السندباد القديم ص ٣٤٦ ـ ٣٥٦

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الخمس الاولى من الآداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «